حديقة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الثانى

الشاعر العالمى الماهر

تاجور الشاعر العالمي الملهم

—٢—

لمحمود المنجوري

[رابعاً]— التصوف : لم يكن تاجور رغم ما تجده في شعره من تصوف ورمز وهيام بالحقيقة المجردة والجمال المطلق ، لم يكن تاجور بالرجل الزاهد المتشائم الذي يرغب عن الحياة وما فيها من متع وجمال

« لن أكون ناسكاً يا رفيقي ولتنصب بك الطنون كما تشاء
لن أكون ناسكاً اذا هي لم تشاركني هذا النسك راضية
لن أكون ناسكاً اذا لم أرتق الى ركن ورفيق يشاركني نسكي
هذا هو ما انتهيت اليه اخيراً . فلن أهجر داري ولن أترك مرتقدي لامضي الى عزلة الغابة ووحدتها ما لم تملأ الغابة ضحكات الامل السعيدة وليهفهف رداؤها الاخضر الى حول عزلتي ؛ وليحترق هيها في نسكي لترداد الغابة سكوناً وصمتاً »

على ان التصوف في شعر تاجور هو عمل روحي وجهد نفسي ، هو معرفة الله وادراك الحق وشمول الروح واتساعها لمعاني الحياة كلها ، وتصوفه نتيجة تدبر ونظر في مذاهب الهند الصوفية المتطرفة ، هو تصوف في مطالب الروح ورغباتها والتماس من النفس لمعالجة مشكلاتها الروحية والاجتماعية من طريق اللين واليسر وادراك الحقيقة . ولقد اشترك هذا التصوف في تكوين شاعرية تاجور ، لأنهُ هيأ له « البصيرة الباطنة » فخلق من التصوف المتطرف تصوفاً شعرياً فيه جميع طرائق الفلسفة الهندية ثم سلك هذا التصوف في شعره ونظره الى الحياة كما سلكه في معيشته اليومية وحياته العامة . فهو من هذه الناحية شاعر الحياة الذي استطاع ان يجسم الشعر وان يجعلهُ دستوراً وان يخضع الحياة له فهو يعيش في معهده وفي بيته ضمن الحقائق الشعرية التي خرَّجها من الحياة ، ولهذا كان شعر تاجور حقيقة حية ملموسة وليس شأنه شأن علماء الاجتماع النظريين الذين يتكلمون عن المساواة والديمقراطية او يبشرون بالاشتراكية ومع هذا تراهم في حياتهم الخاصة أبعد الناس عما يدعون اليه . بل انهم لا يعرفون أدب المعاملة مع من دونهم من خدم إذ يعدُّونهم حيوانات لا تفهم ولا تستحق الحياة . وهم يخدعون الجماعة عندما يتعاملون معها ، مع انك تقرأ لهم رسالات في الدعوة الى الديمقراطية والمساواة والاشتراكية فتحسب ان هؤلاء هم رسل دعوتهم . هؤلاء الدعاة هم قوة كلامية لا تتحرك فيهم غير قوتهم الناقلة الباحثة ، وتتغلب عليهم غرائزهم وورائاتهم . وأما تاجور فقد وضع للشعر منهجاً خاصاً وجسَّم هذا الشعر دستوراً ثم عاش بمقتضاه

والبصيرة الباطنة هي احد مصادر شعره ، وهي حاسة تجود بها الحياة على الشاعر الملهم الذي يحب شخصيته ويجعلها مصدر معرفته لاحتوائها على الحقائق واتساعها لمعاني الحياة كلها . وفي الحق ان البصيرة الباطنة هي أم الحواس الخمس بل هي حاسة تفوق البصر والسمع والشم واللمس والذوق ، لانها حاسة يدرك بها الشاعر الموهوب آثار الصور الباطنة من خلال الخير والكمال . وهي وسيلة لادراك المعاني السامية المتصلة بالروح وحاجة النفس كالحب وادراك الجمال والخير ومعرفة الحقيقة من طريق المعاني الباطنة التي تثير الالهام في الشاعر . والشاعر الذي تغلب عليه البصيرة الباطنة يكون حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة التي يدركها بحواسه الاخرى

والمعاني الباطنة لايمكن ان يتخيلها الشاعر ، لأنها ليست متخيلة ولا محسوسة ، ولكنها تُلهم من طريق الاستمتاع بها كحقيقة كائنة ، والاستمتاع بهذه المعاني يفوق الاستمتاع الحسي بالاشياء التي ندركها بحواسنا

وتاجور شاعر موهوب أطلق لبصيرته الباطنة قوتها وحريتها فلكت عليه كيانه ، فأدرك ما لايدرك بحواسه وكشف حجب الحقيقة ، فاستبانت له ظاهرة جلية واستمتع «بمحبة الله» استمتاعاً ملأ جوانب قلبه ، ثم أصبحت هذه المحبة مصدر كل معرفة وكل ادراك وكل إلهام

على ان نهاية المعرفة أمرٌ غير ميسور لبشري ، لهذا كان لشاعرنا حيرة موجعة تضم معاني الشوق والبحث عن الضالة المجهولة « استكمالاً للوضوح » وبحثاً وراء نهاية المعرفة » هذه الحيرة هي مصدر عبقري لجلال شاعرية تاجور . ولكنها ليست حيرة التشكك ، بل هي حيرة اليقين الظامىء الى تمام المعرفة ، حيرة اليقين العارف الذي يجد نهاية المعرفة أمراً غير متاح ، فهو يقين الشاعر المتلهف الى ادراك سر القدرة التي أبدعتنا . وانك لترى هذه اللهفة المتشوقة في شعره الصوفي . لهفة التطلع الى ادراك المعرفة ومتابعة البحث وراء الحقيقة كلما أدرك منها طرفاً ازداد شوقاً الى استكناه ذاتها ، انها لهفة تنتهي دائماً بالرضى والايمان والالم المبتهج :

كم أعطيتني كثيراً وكم أطلب المزيد
إني أسعى اليك لا لقطرة أبلي بها ظمئي
ولكني أسعى طلباً للينبوع المتدفق الدائم .
وإني لا ألمس طريقك لاقف دون بابك
ولكني أريد أن يحتويني ديوانك الاعلى
حيث أجلس مع رب البيت الكريم .
إني لا أتيه بهبة الحب نفسها الى قلبي
ولكني أنشد الحبيب نفسه .
لقد شاءت مسرتك ان تخلقني غير محدود النهاية
بهذا هيكلي الواهن تستوفي منه الحياة مرة تلو
أخرى لتبثها فيه مبتهجة نضرة :

أني مزمار دق من القاب تحته في ضوائك الظلال
والعذاب متنياً فيه أغاني أبدية الجمة
إن غلي ليفقد أوضاعه ووعيه كما يغيض عليه من
مسرة عندما تلمسه بلمسك الابدي ؛ انه ليتفتح
لكلماتك اللامتناهية التي لا يحدها المنطق
إن نعمك التي لا تحد لا تزال تنهلني
وستمر الدهور وستولي نعمك علي
ولكني ما زلت ظامئاً فيك وما زال في مكاني
فراغ لملأه . .

***

ويجد تاجور في ادراك الحقائق لذة وحرية وجمالاً ومتاعاً ، والحقيقة عنده رائعة جميلة مهما تقسو عليه وتستبد به ؛ حتى حقيقة الموت تخلق في نفسه صورة جميلة من صور الخلود والبقاء لأنها ولادة ثانية لعالم روحي جديد

على ان حقيقة الموت من الحياة لم يدركها ادراكاً فلسفياً أول الأمر ، وإنما عاناها في مستهل حياته يوم كان صبياً لاعباً ، يوم فقد مورد الحنان والعطف والبر ، يوم فقد أمه وليس أبلغ من قلم تاجور حين يحدثنا عن هذه الذكريات ، فلنترك تاجور إذ يتحدث

« كنت حين أدركت أني الوفاة قبيل حدثا . وكان قد مضى عليه زمن وهي تعاني علة استعصت عليها على أنها كانت لا تفارق غرفة نومها ؛ كانت تلازم الفراش فيه ؛ فكنا نراها دائماً صورة عجيبة أعلم عيوت ومضى زمن على هذا حتى حملوها الى الغير في رحلة ثم عادوا بها الى مجمع هوى ها في الطريق الثالث من منزلنا . وبينما نحن نوم في غرفنا دخلت علينا خادمة المجوز في ساعة الليل تبكي وتقول : آه يا سيدي لقد فقدتم ذخر الحنان كله ! فأسكتتها زوج أخي الاكبر وأقصتها عن غرفتنا حتى لا تصاب بصدمة هذا النبأ المرير في ليلة عاصفة . فجمعت رأسها في غفوة بين الصبيات واليقظة بقي يصطخب ويثور بين جنبي . ولكن لا على ما جرى وما سيجيء ، ثم تنفس الصبح فلم أع مصير هذا الموت الذي سمعت خبره . ولكني عندما خرجت الى الشرفة الكبيرة رأيت أبي مسجى في سريره في هذا البيت الخارجي . كان كان عليها وديعاً كما هو في نومه . لم يكن عليه ضيم الموت المخيف . ولم أشعر الى هذه اللحظة بأن وجوده الموت من فراغ مخيف بين حياته وحياتي

ولكن رأيته يحملون به وهي مزجاة على أعناق وهم يسيرون به في الطريق المتظل بالشجر ، حتى الى هذا الركب الرهيب وراءه النعش حتى بلغ به مقره الاخير . فكرت اذ ذاك ان أبي لن يرجع من هذا فحكان الى سريرها في البيت ، وشعرت بالاسى يغمر نفسه اذ رأيته على قبر الاخير . ولكني عدت مع من عاد إلى البيت وتركت أبي وجسمه في مكانه الاخير . ورحت أتصور في ظلام الليل الى الطريق الثالث فوحدت نفسي وحده في مخدعه وريثما ما زال يحيى »

على ان كلا من الشعر قد وهب السيدة على الرغم مما يغمرها بالوحشة من هذه الذكرى ، والافضل هم أقوى الشعر على الاطلاق هو الذي لا يتأثر من قريب أو بعيد من الموت ولا يبالي جرحه فؤاده غير منفعل وهكذا كان شعر الموت في حياتنا . ثم تمر بنا هذه الذكرى في مستهل الطريق ، ثم نمضي ونحن نتحمل حتى الموت كما يجب أن يكون

على ان هذه الصورة ستظل تتردد في خيال تاجور من حين الى حين . لقد فقد أمه ، فقد العطف والحنان الطبيعي غير المتكلف ، العطف الذي لا يشترى ولا يباع بثمن . ما أبره

وأنقاه من عطف ! ولبث تاجور محروماً هذا المعين يتشوق اليه ويعده مرجعاً من مراجع الهامه وحنينه

وكان شاباً مفكراً يوم بلغ الثالثة والعشرين من عمره وكان يدبر ضياع أبيه بين زوجه وولده، ينعم بجمال الطبيعة ويستثير فيها هذه الرحمة وهذا الحنان الذي حُرِمهُ منذ فقد أمه . ولكن كم كان القضاء معجلاً يوم دهمه في عزلته فاختطف منه في أشهر زوجته التي يحبها وابنته التي يعزها وأصغر أبنائه الذي كان يرعى في ساحته الانس والنسيان

في الحق ان هذه الفترة القاسية من حياة تاجور هي التي طبعت قلبه بطابع الألم الدائم والتفكير الذي لا ينضب معينه وخلقت من شبابه لحكيم فلسفة استقرت في قلبه . ففهم حقاً معنى الحياة والموت . واني لأترك تاجور يتكلم عن نفسه أيضاً :

« وأما هذه الفجيعة فقد استقبلتها في مرارة وأسى متصل بالماضي الاليم ، إنما استذكرت مني خلال الشجن منذ فجعت في أمي فاتصل الحاضر الباكي بالماضي الحزين وأصبحت محاطاً بالآلام والاحزان من كل جانب ، على أني كنت قبل هذه الفجيعة اعلم ان الاحداث لا تقطع أوصال الحياة ولا تمنع أسبابها من الاتصال بأمراحها وأتراحها ، فهي وحدة في ذاتها لا يدفعها دافع ولا يؤثر فيها مؤثر مهما يكن ويعظم — ولكني في الحق وجدت عند ما صاقبني الموت في أعز من أحب انني غير قادر على امتلاك زمام الدواب فدلت وراحت بأي الشئون تذهب به وتمت . رأيت ما حول من أرض وماء وأشجار وشمس ونجوم وأنا تتحرك كما هي لا يشلها ملل او فتور او موت ، هي باقية حقيقة لا تتغير في حين ان الانسان المخلوق الحي الذي كان يسيطر عليها والذي كان حقيقة بليغة لا يمكن ان يتكرر وجوده قد صار الى زوال كالطيف الشاحب يختفي في لحظة . فأين العقل ان يوفق بين البقاء والزوال ؟

لقد استولى على حال غامض رهيب لا ينفك عني أبداً ، كنت أفكر في عزلة فيما عساه حاصل بعد هذا الفقد الذي لا يعوض . وماذا أرى في الهوة السحيقة التي حلت وهل يبقى من فراغها الخفيف شيء له وجود . ان النفس لا تؤمن في الفراغ ولا تأنس فيه وجوداً لانه عدم ، ولكني لم أيأس ولا يعتريني ملل وما زلت أفكر في هذا الفراغ لعلي أكتشف أمراً من العدم

وكنت كثيراً ما أمر في يوم مظلم بشرفة بيته متحسراً النور . هكذا كانت روحي . فجعت بفجيعة الموت في يوم مظلم وجعلت تتحسس النور لعلها تجد المخرج السليم . ويلتفت في ضعف يوم كنت أحد اليأس يدنو مني ! ولكني لبثت على هذا الحال طويلا بين الوعة والاسى والتفكير والامل حتى بدت في أفق هذه الظلمة ومضات شجية اهتزت لها نفسي فشاعت فيها شعوراً جديداً — واذا الشؤون التي كان موضوع الابواب الرحبة بعث في الامل وبعث في نفسي معنى الرجاء والسلوى ، وأيقنت منذ اشرق هذا الوميض انه لم تسد في الحياة كلمة « لا » ولكن ما زال النور يتسلل الى فكرة تنجاب وربما حتى تولى الحق سبحانه — وبدلات حياتي بعد مرارة والبيح لهذا الوميض الخفي . لقد كان الاسى ذخراً [illegible] القدر من كوة في [illegible] وتحدث بمعنى الحرية يقترب من [illegible] والعلاء والحقيقة [illegible] حكمتها في [illegible] ما يعتريه من شعور [illegible] الامل وبعد هذه البرهة [illegible] دون أن يجب مستقبل :

انه يبدأ في [illegible] هذا الك
في وحدته [illegible] بين [illegible]
هو الموت يبدع حياة من حياة

لقد بكيت حين ألقيت نفسي تائهة وحيدة بين يدي الزمن — ولكني عند ما وجدت هذه النفس وديعة ستستردها يداك في يوم ما ألقيتها درة غالية أكرم من ان تهمل بين الاشياء

***

يارب ! إني أسمع نداءك ، جاءني عبر البحر المجهول بحمله رسولك الامين
إن الموت جاء يأتي . والليل داج وقلبي خائف واجف .
ولكني مستقبله بتهليلي وقلبي له الباب على مصراعيه مرحباً به مقبلا الارض بين يديه
إن رسولك يأتي أخيه ، في خشوع ودمع فاض من عيني
أخيه وأداء ألقيم له كنوزي (١) وقلبي عند قدميه
انه سيعود اليك بعد ان أدى رسالته وأنجز أمره تاركاً طيفاً غائماً فوق حياتي
انه لم يبق في بيتي للوحش أحداً غيري ليقدم لك القربان يارب !

***

لابد من يوم وان طال الزمن تحييني فيه الشمس وهي غاربة تحية الوداع الاخير
ويسترف الزهاة هادىء الالحان وهم جلوس تحت أشجار الياسمين وتضمهم نومى وترد الطير القريب بينها
تحتي أبني تركب في الظلام
إني أصلي لك يا ربي ، علني أعرف قبل الرحيل ، لماذا تدعوني هذه الارض لتعتنقني بين ذراعيها !
ولماذا يسرني الى مسمع الليل بحديث النجوم ولماذا تبث الارض ضوء النهار منبلا أشعة رقيقة تتحيل الى زهرات .
قبل لي ان أثرت ليلا قبل رحيلي لاتم لتشييدي الاخير نغمه وموسيقاه . وهل تضحي من نور فأرى وجهك . وهل تزهر ان يسك فأنظم لك منه تاجاً لجبينك ؟

***

« في اليوم الذي يطرق فيه الموت بابك . ماذا أنت باذل له ؟
سأقدم بين يدي ضيفي وفاء حياتي قانعاً وهادئاً ، ولن ادعه يمضي صفر اليدين .
سأهبه اشيي فتخف السير ، عبر الطريق وتيل الضيف وأحله ما كدت وما جمعت و حياتي الدائبة
سأضع كل هذا بين يدي ضيفي في آخر أيامي حين يطرق الموت بابي . »

***

فمعرفة تاجور بحقيقة الموت . انما هي معرفة من كابده وقاساه . ثم معرفة من عالجه بالتفكير والتأمل . واحساس تاجور بالموت يعادل احساسه بالحياة وبكمال الوجود والتفكير فيه . وأنت عند ما تتلو أشعاره تراه يتهيج بذكر الموت ، ويرحب به كما يتهيج ويرحب بالحياة . لانه يعلم ان الموت هو ثمرة الحياة الاخيرة التي تشتهيها النفوس العارفة بحقيقة الوجود والكائنات

تبدو في آخر ثمرة في الحياة ، تعال تجلى إليك .
إني أرقب مجيئك دائماً ، وفي سبيلك أتحمل بقلبي ، أوجاع الحياة وآلامها
إني أجود بنفسي وما أبقي وأجزي هو الآخر ، حتى يتم في ذاتك وأنت ، وحدك ، الحلقة المرموزة
من عينيك ، إن دعتني بيت ، لأن حبي لك أخر الأمر ، يبلغ غايته
لقد نبعت العين من ترجيل من داره ، ثم سعرف وقد أكتمل جوهرها الأبدي ، وتعمد بين يديه
إلا كمال ، أنا مستقر دائم وحتى وجهه يبدو لي في هدأة من الليل

(١) زوجه وأولاده يوم فجر نفسه

وكتب تاجور فصلاً رائعاً كان ألقاه على تلاميذه محاضرة بالبنغالية في معهده عنوانه « مسألة الشر » جاء فيه عن فلسفة الموت :

يهولنا ان نعلم الثقل الذي يصيب البوصة الواحدة من جسمنا من ضغط الهواء ويهولنا أكثر ان نعلم الثقل الذي ينال الجسم جميعاً ، ولكن لكل ثقل ما يقابله من مقاومة. ولهذا حفت علينا أثقالنا . والتنازع على البقاء تكافؤ وتقابل تأنس اليها النفس البشرية في محبة الاثقال وعطف الاصدقاء وفيما يصدر عن الحب من معان وبعمل وتضحية — فهذه كلها تخفف اعباء الحياة بل هي تناوئها وتقابلها . ولو أنا تمكنا بأنفسنا باحثين عن حقيقة الموت لبانت لنا الدنيا مقبرة ، ولكن الطبائع تأبى الرأي على ان الموت في هذه الحياة أضعف من ان يخلد الطريق على تفكيرنا ؛ وليس هذا يرجع الى أن الموت حدث قليل الوقوع نادر الطلب ، ولكن يرجع هذا الى ان الموت هو الوجه المبطل للحياة على وجه هذه الارض . ومثل الموت عند كثير تردد العين بين نحض جنب وانتهاض فهذه الحركة من العين تحدث تغذية في كل لحظة ومع هذا لا نشعر إلا بالعين مبصرة دائماً ومع ذلك لا نكاد نحصي لها عدداً . فالحياة في جملتها لا تعلم الموت وزناً . فهي تضحك وترقص وتلعب وتغني وتشعر وتحب في مواجهة الفناء .

على ان الموت يقسو علينا ويصدمنا حقا عندما تحل كارثة الموت بفقد فرد منا . عندئذ نرى سواد الحياة حداً وتعدي سلب وقد يختلط علينا الامر فيتعسر النظر منا عن ادراك الحياة وعن فهم الموت كجزء من الحياة كلها . ويكون شأننا في هذه الكارثة كمثل من ينظر الى قطعة مجزأة من نسيج من وراء ستر مكدر فيحسبها شبكا مثلثة فيهولك الامر ويخطئنا التدبر والحسب. ولكن الحق هو غير ما نرى ، هو ان الموت ليس بالحقيقة المظلمة التي تراها عيوننا لاول وهلة فهو قد يظهر لنا اسود اللون كما تبدو لنا السماء زرقاء ولكن ليس لسواده صبغة حقيقية كما ان زرقة السماء ليست إلا وهماً ولوناً خادعاً فلا تترك لونها في أجنحة الطير »

ولهذا يبتهج تاجور للموت كما يبتهج للحياة ويرى فيه سبيلاً للمعرفة ومسرة أبدية

[خامساً] الفلسفة الهندية . ولعلّ الفلسفة الهندية هي أعمق العناصر في شعر تاجور أثراً . بل انها حقاً مدار جهده الأدبي ومثار تفكيره وهدف نظره الى الحياة بل هي رسالته التي بُعث لها فكان عظيماً في اخلاصه وفيّاً في ادائها . ولقد بسط فلسفة الهند في محاضرات ألقاها على تلاميذه ثم نشرها في كتابه الجليل المسمى سدهانا او (استكانة نفس) وانهُ ليقرر في فصله الاول الذي شاء ان يجعل عنوانه « علاقة الفرد بالمجموع » كيف نشأت المدنية الهندية وكيف بعثت الفلسفة بين أهل الهند . فيقول : ان المدنية الهندية لم تنشأ نشأتها الأولى كما نشأت المدنية الاغريقية بين الجدر وأسوار المدن ، ولكنها نشأت في الغابة المسيحة . ولهذا أحيطت فلسفة الهند بروح الطبيعة الشامل ونأى من النظر غير المحدود . ونشأ العقل الهندي حرّاً طليقاً غير مقيد بما تقيد به العقل الغربي الذي نشأ في مدنية محصورة مقيدة بالرغبة في ان يمد الفرد نفوذه وتملكاته ويعددها ببناء الأسوار واقامة الامبراطوريات . فلم تكن رغبة العقل الشرقي في التملك والحيازة المادية ولكن كانت طبق ما توحيه فلسفته وعقائده مجبولة في فهم الاشياء وادراك حقيقتها ، وتوسيع نفوذ ضميره عليها ، فأن ينمو هذا الضمير نموّاً منفعلاً باتساع آفاق الطبيعة التي تحيط بالانسان . وشعر الرجل الهندي الذي نشأ في مدنية الغابة

غير المحدودة بأن الحق هو ادراك شامل للكائنات وان التفرد المطلق لا يشبهه شيء في الوجود ، وان السبيل الوحيد للوصول الى الحق انما يكون بيقظة نفوسنا واشاعتها في الاشياء التي حولنا لندرك كنهها ، ولقد كان ادراك هذا الانسجام بين الفرد والجماعة وبين الفرد والطبيعة او بين الفرد والعالم الذي حولهُ : كان هذا الانسجام بين روح الفرد وروح العالم هو الجهد الذي بذلتهُ الفلسفة الهندية القديمة منذ سكن حكماء الهند الغابات

واتسع قلب الهند الكبير للمعاني السامية التي توحيها الطبيعة، فأنشأ الانسجام والتفاهم بينه وبين ما حوله ، فلم يشأ ان يقهر الطبيعة كما فعل الرجل الغربي . بل شاء ان يتعاون معها وان يتقي هذه الخصومة الدائمة التي أعلنتها مدنية الغرب على مظاهر الطبيعة للوصول الى استغلالها من طريق قهرها واذلالها — وشاء وحي الهند ان يضمّن فلسفته قلب الانسان وقلب العالم في معنى مثالي واحد . وان ينظر اليهما كحقيقة واحدة كبرى فلا فرق بين الانسان والطبيعة فهو جزء منها وهي كلٌ متضمن إياه . ونشأت فلسفة الهند من هذه الحقيقة التي تعتد بالانسجام الكائن بين الفرد والجماعة او بين الفرد والعالم وما فيهِ من بشر وحيوان وجماد ، وأحست هذه الفلسفة بأن الانسان قد لا يلتئم بما حوله من كائنات مالم توجد بينهما الالفة والمروة الوثيق للتعارف والتفاهم وانهُ لهذا يجب ان يكون حبيباً مقرباً لما حوله لا عدوًّا يبغي القهر والنفوذ والسلطان، فهو لا يبسط نفوذه على الطبيعة قهراً واستغلالاً ولكنهُ يتوصل اليها لا من طريق العلوم الطبيعية بل من طريق ادراك كنهها ومعرفة أسرارها معرفة تبعث في نفسه مسرة دائمة باتصاله بها اتصالاً مرتبطاً بالمعرفة وكشف الحقائق التي ندرك بها الغرض الاسمى من وجودنا . ويقول تاجور في هذا :

« عندما ندرك صلة قريبة من الصور التي حولنا نشعر بأننا قد حررنا النفس واعتقناها من الرق ، فادراك الحقائق الروحية للكائنات التي حولنا تظهر على عظمة حياة الكائنات ، ونشعر بأننا نوصلون بخيوط من ذهب »

ولم تنكر فلسفة الهند فوائد الفروق بين الطبائع والمواهب وإلاّ تقلت الحياة واختل ميزانها وأصبح النهوض بها مستحيلاً . كما لم تغفل هذه الفلسفة ميل الانسان الى حب السيطرة بل اعترفت له بهِ ، ولكن في الحقائق التي يجعل بالانسان ان يسيطر عليها في الوجود . وقررت ان العظمة والسيطرة ليست في التملك والحيازة وبسط السلطان والاستعمار ، ولكن العظمة والسيطرة تقوم في قوة الاتحاد بالعالم من طريق فهم حقيقة الكائنات وادراك روحها ادراكاً تامًّا

هذه الفلسفة هي فلسفة الهند بل هي فلسفة الشرق جمعه : تجلى لها تاجور تجلياً كبيراً فكان عظيماً في اشعاعها في أدبهِ وآرائهِ وأشعاره وأغانيه، وكان عظيماً مخلصاً لوطنه وفيًّا

لذكراه ، لانهُ استطاع أن يصور وطنه في أدبه وان يذيع فضله على المدنية والثقافة البشرية وان يصور الهند للعالم تصويراً روحيًّا لانهُ يعتقد « ان لكل قطر حدوداً معنوية باطنية كما له حدود مادية ظاهرة وفي الحدود المعنوية يحكم الروح ويهيمن ، وليس للقوة المادية ان تقهر او تبطش او تستولي على جزء ضئيل ما من هذه المملكة المعنوية الروحية »

هذا الرأي أعلنهُ يوم وقف الى جانب غاندي ليقول للانكليز انكم لن تستطيعوا ان تحكموا روح الهند بأساليب القهر والاستعمار : وقد كان عظيماً اذ صور للعالم عظمة جنسه من فكر وفلسفة وعقائد ، ومع انهُ يقدس وطنه على انهُ ايمان وعقيدة ، يجد في العالم وطنه البشري الذي يتسع لدعوته الى الخير والسلام والمحبة

فالحب والخير والوحدة الروحية وادراك ما في الحقيقة من جمال كل هذا هو مبعث الالهام والوحي لشعر تاجور ، وليس أبلغ من تاجور نفسه عندما يبسط رأيه في الوحدة الروحية فيقول :

« اني اصغي في بصيرتي فأرى الحياة واطمئن الى ما في الحقيقة من ائتلاف منظوم لا يتبدل . أصبح ادراكنا لحب الخير جامعاً وعالمياً . واتمم طابع الجمال في حياتنا تجسيم الخير والمحبة الجامعة ، وتوجيه ضمائرنا نحو للعاني شطر اللانهائية التي لا تنضب منها المعاني الخالدة . هذا هو غاية الحياة وسبيلها دائماً ، هو اتحاد الروحي في الصدق كما ان الصدق هو الجمال ، وان نفهم الحياة ونتدرك في الحب ، لان الحب هو عصب الحياة ومبعث وجودها وأثمر معنى فيها وأقوى دليل على بقائها . فيجب ان نحرر قلوبنا وان نمنح هذا العنق الثم الذي يبعث فيه الحرية لكي نفهم لاسرار الكائنات فندرك دخائلها العميقة فيشملها حبنا ويسعها ضميرنا فتتفوق مناهج براهين فندرك غاية الحياة . » (١)

يقدم تاجور مبتدئاً عن ايمان الفرد بوجوب ارتباطه بالمجموع ، من اتصال روحي لمحبة الخير والفضيلة ، ومن انكار للذات واعراض عن الانانية وسماحة نفسية لا تبخل بالتضحية الفردية في سبيل الجماعة — فادراك نفسية المجموعة البشرية تمهيداً للانسجام فيما يتطلب من الفرد ادراكاً واسعاً وشعوراً دائماً بشعور الجماعة ، وهو يرى أن الانسان عندما يشعر بالجماعة اتصالاً روحياً يتكون حقاً قد قدر نفسه وجعلها في مرتبة سامية تسمو على مرتبة الحيوان الذي لا تتسع العبرة الا في تفكيره في حياته الخاصة وحياة جسده وحده . ولقد بسط تاجور هذا بحثاً انسانياً في ناحية من محاضرة (٢) له ، اشار فيها الى معنى الخير في الحياة والى ما يتوفر عند سائق الفرد الذي يسمو بطبعه الى الاتصال بالمجموع شعر بشعور يكون كوحدة عامة . ونرجئ نقل فقرات من هذه المحاضرة : التي تلخص رأيه في « الوحدة الروحية »

---

(١) من محاضرة ... وهي فصل من كتاب سمعها .

(٢) الفصل مأخوذ من كتاب سمعها .

« تنشأ حاسة الخير في حياتنا من ناحيتها التي تظهر الحق وترتبط بحياة المجموع ؛ هذه الناحية هي الوجه الخير الفسيح لحياتنا ، هذا الوجه لا يقصر عنايته على ما يحيط بنا من حاضر فقط بل إن عنايته لتملأ ما هو خارج عن حاضرنا ، وربما شملت حياة لم يقدر لها وجود بعد . والانسان الحكيم يشعر بهذه الحياة الأخرى التي تنتظره والتي قد توجد بعدنا بل إنه ليحس بها أكثر من إحساسه بالحياة التي بين يديه . لذلك كان عليه أن يأبى لنفسه هذه الحياة فيضحي بحياته في سبيل مستقبل مجهول الأوضاع ، وهو بهذه التضحية يصبح عظيما لأنه أدرك الحق تمام الادراك . على المرء أن يدرك هذه الحقيقة مهما تبلغ به الأنانية ، وعليه أن يعلم بوحدة عواطفه بأن يكون خير الخلق ؛ لأن قوته الروحية هي التي تصرف بين الحياة ليست ثوبا مهلهلا مدته اشتات الخرق ، أو أنها وجدت جزافا دون هدف لها . وما هو بالأمر الهين الذي به إلى الوجود بلا قصد أو غرض فإنما الحياة حقيقة متصلة غير منقوصة ، وقوتنا على الاتصال بما ليس في حدودنا ، تهيئ روحنا استمرارا موصولا مع الزمن وتمكن الانسان من ادراك حقيقة أخرى ، وهي أنه لن يكون مقدرا لنفسه إذا ما تكفف على نفسه وعاش في حدودها فقط . وأن الفرد ليس ملكا لنفسه وأنه هو حق لآخرين ، يدخر في شخصه وفي يتمتع في حياته أن يعرفهم . وكما أن للانسان شعورا بروحه للجماعة التي لا يحدها ، فإن له شعورا بروحه لجماعة الكبرى التي تقع خارج شخصيته . وما من مخترع إلا ويشكو هذا الشعور بقدر ما يخلق بعد هذا الانسان الذي يصبح بفيء من رضائه للجماعة في سبيل شخص آخر ، وفيه في الدنيا من يسعده الشعور ولو مرة واحدة بفترة الحرة التي تبعث إلى النفس عند البذل والتضحية من أجل احتمال خسارة أو دفع مكروه عن مخلوق آخر . وإنه لمما يثبت أن الانسان ليس بمخلوق منفصل عن البشرية وأنه هو موصول بها ، وعندما يدرك الانسان هذه الحقيقة يصبح عظيما حقا . ولا مناص للنفوس الشريرة من مقاساة آلام الشر وترتكب الجريمة من أن تؤمن بهذه الحقيقة أبدا ، فليس ثمة جريمة عند الفرد إلا تقع الجريمة دائما على الجماعة . والحياة معنى نسبح به من الشر لفكرة أو لوطن أو لغير الانسانية . وإن الانسان ليتضاءل بقدر ما يسعى هذا المعنى النبيل في حياة البشر ، وإنك لكي تعيش عيشة الرضى والخير يجب أن تحب الناس جميعا يوم انشأ يؤدا السبيل التي يهدي اليها البشر استنار عندئذ هذه الحقيقة : عندما يعمل الانسان لغاية مبتغاه بادماج ذاته في البشرية العامة وبانماء فرده في الجماعة يكون قد تحرر من مقلة الأنا والنفس والأنانية

إن شخصيتك مجبرة على البحث عن الشيء الجامع الذي تستمد منه قوتها ، وإنها متى تخلت عن هذه الغاية فقدت على مادتها وتفقد عيون حاسة الابصار إذا قصرت النظر على أن تبصر في نفسها دون تطلع إلى ما هو خارج عنها

وتاجور فيلسوف بالوراثة ، فهو من سلالة فلاسفة وأسرته من الأسر العريقة في العلم والحكمة والمعرفة والفنون . نبغ فيها زعماء في الدين والفلسفة والشعر والتصوير ، فوالده شاعر ديني فيلسوف له رأي ونظر في قيم الاشياء ، وأخوه الأكبر جوجندرانات من أمهر المصورين ، وأخوه دويجاندرانات فيلسوف متصوف كبير ، كان له بالغابة منزل يفكر فيه ويتأمل أسرار الكون حتى لتهفو عليه الطيور وتهبط مؤنسة كأنه في صدقه وسكونه قطعة من الغابة ...

وهذه البيئة الروحية هي التي أعانت تاجور على أعباء مواهبه الفلسفية وقد بسط فلسفته في محاضرة جاء فيها :

[illegible]

إلى يحيط به وهذه القشرة التي تحميه . لكن غريزة تدفعه مع ذلك ليكسر القشرة ، فاذا كسرها خرج منها الى الحياة . كذلك توجد في النفس الانسانية غريزة تدفعها الى الخروج من هذا الضيق المحبوسة فيه احتباس الفرخ في قشرته الوصول من هذه الحياة الى نور حقيقته الانسانية التي تدفع اليها بغريزتها . هذه الحقيقة هي موضع إيمان الهنود ، وهي فلسفتهم التي يلقنونها أفراد الشعب

« انت الذي أريده . أنت وحدك .
لقد ذكرتك دائماً في أمس لا تعني .
أي إلهي أي زعيم السماء
اني لم أجلس تحت نبعك إلا لتحكون
حياتي شيئاً سهلا منسجماً أشبه بالوتر المتين
الذي تملأه الحياة أغاناً وموسيقى »

« اني ربما لا أنال النعمة التي لا تعرف الخجل ولكنها تخجل من السؤال بباب
إلهي لا حاجة لتزيين بيتك . ومن له ان يعد دقائقك . تكر الايام وتمر الليالي وتتفتح الاعوام عن تعاقب كالازهار ، وتعرف أنت كيف تنتظر »

[سادساً] — المسرة والبهج: وتاجور ليس بالشاعر الفيلسوف التشاؤم ولكنه أبداً مبتهج يحس عظمة الكون وقدرة الخالق في هذا البهج وهذه المسرة التي تملأ قلبه عندما يستقبل الحياة في اطمئنان ورضا . وله في هذا فلسفة ترجع الى الفلسفة الهندية القديمة التي شرحتها تعاليم يوبانيشاد حيث تقول : «إن الكائنات جميعاً انما خلقتها ابتهاج الله ومسروره الذي لا يحد ولا يفنى » فعكرة خلق الكائنات انما هي ايثار لها ومسرة من الله بوجودها ؛ ولهذا كان فهمنا حقائق الاشياء لا يمكن ان يكون الا من سبيل الخير والتفاؤل والمسرة

وتاجور له بعد هذا النظر الوديع في العالم، قلبُ الطفل البريء الذي يدرك الحقائق بالفطرة والبداهة . وقلما تجد شاعراً له هذا القلب الكبير الذي يجمع العالم وهو مع ذلك قلب طفل بريء لا يدرك غير الخير والمحبة والبهج والمسرة

وليست مسرته نتيجة الاقبال على الحياة والاستمتاع بفوائدها الحسية خوفاً من اقتراب الاجل والحرمان . فأناشيده الصوفية الممتلئة بالبهج والمسرة ليست كأناشيد عمر الخيام الذي يدعوك ان تقبل على الحياة سهلاً قبل مداهمة الأجل ، وليست بدعوة شائكة مفوتة بالشك في الحياة الاخرى ، وانما أناشيد تاجور تدعوك الى شرح روحي والمسرة المفهمة التي غمرها في دخيلتنا من طريق الايمان بأن الاشياء التي نحبها والتي تصادفنا في الحياة انما هي كائنات منسجمة أوجدتها ارادة جامعة موحدة تلهمنا شعورها بالمحبة والمسرة من وجود هذه الكائنات . وانها اذ يدعوك ان تستقبل الحياة مبتهجاً بهيجها ومسرورها وخيرها وشرها انما تدعوك الى فهم حقيقة الحياة من طريق التفاؤل والرضا والايمان بخلودها وليس بالشك فيها والتخوف منها كأنها حدث مصيره الى الفناء والزوال

أيها القلب المذنب : ملك تدفع خواطرك وتبعث دموعك في شعاب الزمن الماضي
قم واطرب واصبح فالايام آتية
والساعة تدق أيها المرتحل عن هذه الدنيا
لقد آن لك ان تتركها وتكون الى الله وجهة مرة أخرى
تلك سفراتك هذه المرة سفرة غير محجة فاصبح يا قلبي المذنب !

على ان لتاجور في هذا النظر الفلسفي في الحياة سَهمٌ المصلح الاجتماعي الذي يعمل على اسعاد الفرد والامة واسعاد البشرية بأن يخلق حالة عقلية يصبح بها المرء سعيداً مبتهجاً ، والا فالجماعة البشرية سائرة الى الانقراض والاضمحلال ، نتيجة التشاؤم وعدم الايمان بالقوى الروحية المهيمنة عليها . فمن المحال ان تدرك النفس البشرية سعادتها من الاشياء الخارجة عنها ما لم تفهم كنهها على انها أثراً لقدرة مدبرة خالقة . واذن فلا سعادة ولا ضمان اجتماعي الا بالايمان بقدرة الله والاقبال عليها في رضا وسرح ومسرة روحية تنشىء للفرد شعوراً بالسعادة

ويأبى تاجور العنف في كل شيء ، ويعتبر الاسراف في التشريعات الاجتماعية والمعاهدات الدولية عملاً عنيفاً لن يأتي بثمرة ما بل هو دليل على الضعف واصرار على نية الغدر وعدم الثقة بطبائع الخير التي في النفس البشرية وهو قبل هذا علاج وهمي يزيد في امراضنا الاجتماعية والروحية

ويريد تاجور ان يستغل ما في طبيعة النفس البشرية من ميول الى الخير والتضامن الانساني والوحدة الروحية لاجتناب ما تسعى اليه التشريعات والمعاهدات من الالتزام والجبر

فطريقه الى الاصلاح الاجتماعي هو طريقه الى الاصلاح الروحي فان يكون الافراد سعداء بحريات موفورة في نفوسهم ، يشعرون بها في الحب وادراك الخير وخلق وتطهير نفوسهم مما علق بها من طبائع الاستبداد والانانية ، وان يكونوا سعداء في معرفة انفسهم وفي السمو بها عن مباوي الاثرة التي تجر البشرية الى ويلات الحروب ، وان تدرك الانسانية هذا السمو الا اذا أدرك الانسان نفسه واغتبط بها وبما يحيط به من كائنات مختلفة

هذا التفكير الروحي هو مُسهَمُ المصلح الاجتماعي الذي يؤمن بان الاصلاح للفرد والجماعة لا يأتي عن طريق الارغام والتشريع والحكومة ، وانما يأتي من طريق تنمية الخير ونشر الصورة الاجتماعية في النفس البشرية . ومن طريق تهذيب العادات واستغلال ما في الخير والشر في الانسان ، وسبيل ذلك هو ان يعرف الانسان نفسه وان يشعر المرء بانانية كفرد يدركها من طريق التهذيب وسيرة الروحية

أليست هذه المعاني السامية عن أحسن معاني الدين المقترنة التي يشهدها الانسان دائماً ، ليحيا حياة سامية كريمة ؟

هذه هي مصادر شعر تاجور وهي مثار الهامه ووحيه